عبد الرحمن في بيروت

فاجأني عبد الرحمن بقدومه الى بيروت لاصطحاب الفتيين.. وصلت طائرته عند الصباح، فتلفن لي من المطار يقول بأنهم يحتجزون حقيبته للتفتيش، وأنه سيكون عندي بعد انتهاء الإجراءات..

عرفت على التو ما يجري هناك لابتزاز المسافرين من العملة الصعبة، فقلت لعبد الرحمن:

-انتظرني لأوافيك في الحال!

قلت لفريدة بأن والد جهاد قادم، فحين يستيقظ أخبريه أنني لا أستطيع أن أنقله الى دورة اللغة الفرنسية اليوم، وطلبت من فريدة أن لا تذكر السبب كي يكون مفاجأة له وأردفت:

-دعي نورا وجهاد يتصرفان كيوم عطلة، ويستحمان ويلبسان جديد الثياب، وينتظراني على الفطور، لأنني لن أغيب طويلا..

كانت المشكلة في المطار أنهم يريدون عملة بالدولار ضريبة جمرك عن الهدايا التي أحضرها عبد الرحمن معه..

وضعت في يد المسؤول الأمني مائة دولار وقلت له "انني محامية وأعرف القانون جيدا، ولكنني لا أريد إفساد يومي بعودة أخي من ديار الغربة لرؤيتي..

أفرج المسؤول الأمني عن الحقيبة فورا، فحملها عبد الرحمن ووضعها في سيارتي.. وترسلت فيها الى منتزه قريب..

كان المنتزه خال من الناس ولكن المنظر فيه مفعمة بالجمال فأوراق الشجر تتلون قبل سقوطها بألوان الأخضر والبرتقالي والأصفر والأرض سندسية حليقة بعد مطر خفيف ودوالي العنب فوقنا قطوفها دانية وحباتها كبيرة ناضجة..

طلبت شراب الرمان المثلج لكلينا.. وأخذت أشف منه وأقول:

-لم ترد على رسالتي..

-جئت بنفسي لأرد عليها.. اشتقت لكم.. ذكّرتني رسالتك بطفولتنا السعيدة في صيدا، وأفعمت خيالي بالذكريات..العالم تغير، أولادنا لا ينعمون بالأمان الذي كنا نشعر به..يعيشون تجارب قاسية..

-تعرف يا عبد الرحمن أنك الأقرب الي بين إخوتي ، والألصق بي، والأكثر فهمـا لي.. أشعر بوحدة في غيابك.. أشتاق لحديثك وتحليلك للأمور.. ليس مـن أحـد يـدخل أغواري ويعف مكنونات صدري مثلك.. أنا صفحة مفتوحة أمامك لا تخفي سراعنك، ولو كنت حظيت بزوج له مثل صفاتك لكنت أسعد النساء .. ولهذا لا أتمنى لك الاّ أن تحظى بامرأة تسعدك كما كانت ثريا بالنسبة اليك..

-لا تنكئي جروحي ، لست أفكر بالزواج بعدها. لا يهمني الاّ أن أقوم بواجبي تجاه نفسي، ومن يلوذ بي، وتجاه وطني لبنان..

-دعني أساعدك بواجبك تجاه نفسك.. ان من ارتحت لعشرتهم في الماضي كنت أنا أرتاح اليهم ..ثريا أحببتها منذ رأيتها تتفانى في إسعادك وتلهج باسمك كأنك نبي، وتقـدر مزاياك ، وتتمنى أن يكون لها دستة من الأولاد يكونون على شاكلتك.. رحمها الله، كانت امرأة حقيقية، نادرة المثال بين نساء اليوم..

-كيف تريدينني أن أجد بديلا لها في حياتي؟

-لا يعيش الإنسان على الذكريات.. أنت رجل في أوج شبابك ورجولتك، انسان من لحم ودم، فلا تنكر واجبك تجاه ذاتك.. ابحث عن بديل لها تحمل صفاتها.. قد تكون هـذه الإنسانة قريبة منك ولا تراها..

-جدي لي هذه المرأة وأفكر بها بشكل جدي..

-جهينة يا عبد الرحمن!

-ولكنها زوجة رجل آخر يأبى طلاقها..

-لو شاءت هي الطلاق منه لفعلت، ولكنها تبقي على هذه الشعرة بينها وبينه لتبعـد عن نفسها كل من تعجبهم شخصيتها ويودون التقرب منها.

-أرى أنها معقدة، وان كنت أعجب بها..

-لا ليست كذلك، انني أفهمها أكثر مما تفهم هي نفسها.. انها تحبك يا عبد الرحمن!

-أهي قالت لك ذلك؟

-تصور أنها تقول لي ذلك صراحة!.. انها تنتمي الينا.. كبرياؤها كبرياء آل عباد.. أعرف من ردود فعلها حين نتحدث عنك.. قالت يوما بعد أن قرأت رسالتك الأولى إلـي "لماذا يبتعد عبد الرحمن؟ أيواسي جراحه بثريا بالتخلي عن قضيتها؟ ماذا يفيده القـانون

الدولي وماذا ينتفع به في بلده؟ قانون الغاب!.. انه أديب كبير موهـوب، ومواهبـه أفضل من أية شهادة يحصل بها على لقب دكتوراه في القانون الدولي." أخذت أدافع عـن وجهة نظرك، وكانت تبتسم ابتسامة أسية كتلك التي شاهدتها على شفتيها يـوم عرفـت بقصة داليا وكريم.. يكتشف الإنسان أسرار النفس من كلمة عابرة أو تنهدة أو تعليـق أو نظرة أسية أو تألق في العينين.. عندي قصص كثيرة أرويها لك، ولكـن حـان الوقـت لنذهب الى البيت ، ونفرح جهاد ونورا بقدومك، وما تحمله في حقيبتك الثقيلة من هدايا..

* * *